التعاون الدولي

وتدريس علم التاريخ في مصر

لا مشاحة في ان مصر لو وجهت نظرها الى حضارتها العريقة في القدم وراعت ما كان لها في سالف الازمان من مجد شامخ الذُرى ترى شواهدهُ بين الآثار وتتلى اخبارهُ في صحف التاريخ لوجدت من ماضيها محرضاً لها على مركزها بين الامم المتحضرة وباعثاً لها على ان تكون اكثر تلك الامم اهتماماً بانتهاج سبل الرقي والاِمعان فيها حتى تبلغ ما هي حقيقة بنيله من رفيع المنزلة وكبير المكانة وتصل حاضرها بماضيها بتنوير الاذهان وتثقيف العقول مما يعود على الجميع بالخير والفلاح

قال احد كبار الشعراء في الحضارة الغربية انها وليدة ايطاليا وحفيدة اليونان وكان جديراً بهِ ان يزيد على ذلك ان مصر هي الجدّة العليا لهذه الحضارة

ولئن كانت مصر لا تطمع الآن ان تكون تبراساً يهتدي بهِ العالم فان هذا لا يمنعها من السعي في ان تحتفظ بما لها من المكانة في نظر سائر الامم وتستفيد من الاطوار التي اجتازتها هذه الامم فتمينها في جهادها في سبيل الرقي العام بما تحدثهُ من وجوه الاصلاح الشامل والمنافع المميسة

ويجدر بنا ان نتساءل ما هو الطريق الذي انتهجتهُ مصر حتى الآن للوصول الى هذه الغاية وماذا ازمعت عليهِ في مستقبل الايام ؟ هذا هو موضوع بحثنا الآتي:

اولاً — مركز مصر في العالم والروابط الدولية فيها

لا يخفى ان مصر تشغل في الوقت الحاضر من الوجهة الجغرافية مركزاً لا يقل شأناً عن المركز الذي كانت تشغلهُ في سابق الازمان بين الامم فانها واقعة في مفرق طرق العالم الهامة وتلتقي فيها جميع اصناف البشر وهي اكثر البلاد قبولاً لهجرة جميع الناس على اختلاف اجناسهم وملهم ونحلهم فتقبل من يؤمّها على الرحب والسعة وهذا قلما يوجد في بلد آخر كما ان روح الاتفاق والوئام سائدة فيها فعلاً لا قولاً فان العنصرين الاصليين اللذين يتألف منهما الشعب المصري وهما المسلمون والاقباط تراهما على انفصالهما من الوجهة الدينية متصلين متآخيين متصافيين في معاهد التعليم والحقول والمصانع والمجالس والجماعات

اما العناصر الاجنبية التي تمثل امم العالم باجمعها فهي متآلفة ايضاً فلا ترى الاّ أمارات السرور والرضا بادية في معاملة هذه العناصر بعضها بعضاً وقد نُقل عن الخديوي اسماعيل باشا انهُ قال « ان بلدي ليس الآن في افريقيا بل بعدّ قطعة من اوربا » ولو عاش الى الآن لقال انها حلقة من حلقات الاتصال بين اجزاء العالم كلها. ولا عجب في ذلك فان مصر حرّ لجميع العالم وموطن لمن يتزح اليها. وقد استوطنتها عدة طوائف من العرب والترك والسوريين واليهود والأرمن وكلها تعيش جنباً لجنب مع الطوائف الاخرى التي تمثل امم القارات المختلفة واكثرها الامريقيين والانجليز والبلجيكيين والفرنسين واليونانيين والايطاليين وغيرهم ومعظم هذه الطوائف المتعدّدة تتمتع بالعيش الرغيد والرفاهة ولها في البلد نصيب وافر من الشؤون الصناعية والتجارية والعلمية. وتسعى كل طائفة من هذه الطوائف جالية وتتمتع بتمام حريتها وتنشيء لنفسها المعاهد العلمية والمعابد والمستشفيات والجماعات الخيرية . وهذه الجاليات لا يساعد بعضها بعضاً فحسب بل تتعاضد وتتعاون فيما يعود على الحكومة والاعمال العامة بالفائدة والمنفعة وكثيراً ما يشغل عدد كبير او صغير من افراد هذه الجاليات المناصب الرفيعة في مصالح الحكومة

وتتناول روح التعاون ايضاً الجماعات الادبية والعلمية والزراعية والمالية والتجارية والمجمع العلمي المصري والجماعة الجغرافية وجماعة الاقتصاد السياسي والتشريع والجماعة الزراعية وشركة قناة السويس وشركة تكرير السكر وغيرها وهذا برهان ساطع على ما للعلاقات الدولية من الشأن الكبير في الديار المصرية واعظم الشواهد على ذلك تشكيل المحاكم المختلطة من قضاة من مختلفي الاجناس فترى فيها الانجليزي بجانب الدانيمركي والاسباني واليوناني والفرنسي والايطالي والسويدي وغيرهم ولذلك تعد هذه المحاكم من بعض الوجوه صورة مصغرة لجماعة الامم التي ولدتها الحرب العظمى مع انها انشئت من قبلها بزمن طويل

ولم يكن التعاون في العمل بين هذه الاصناف البشرية المختلفة محصوراً في دائرة القضاء بل تناول الاعمال الخيرية فترى الناس اذا دعوا الى اغاثة ملهوف بادر كل منهم الى تقديم ما تجود بهِ نفسهُ حباً في الانسانية لا لوازع ديني ولا طمعاً في الشهرة والفخر ولدينا من الشواهد الناطقة بذلك الجماعات الدولية لتحسين حال العميان وحماية الفتيات واللقطاء وتوزيع المواد الغذائية على المرضى من الفقراء وكذلك

جماعات الاسعاف والطب والمستخدمين والمهندسين والممارين والصيادلة وغيرها وكل هذه الجماعات تتجلى فيها روح التعاون العام بالديار المصرية بأجلى مظاهرها وقد اثبتت تلك الروح غير مرة انها تستطيع ان ترفع حب الانسانية الى منزلة حب الوطن

ولقد كان للنفوذ الشخصي لمن حكم مصر من الولاة من عهد محمد علي الكبير وأسرة المالكة الحالية احسن اثر في هذا السبيل واننا نرى في عصرنا الحاضر جلالة ملكنا المحبوب فؤاد الاول يهتم الاهتمام كلهُ بالمسائل الادبية والصناعية والاقتصادية والاجتماعية التي تعود على البلاد خاصة وعلى المدنية عامة بالتقدم والرقي. وقد تفضل جلالتهُ بتوجيه أوفر قسط من عنايته في سبيل تقدم التعليم على اختلاف طبقاته والامل عظيم في ان مصر تبلغ قريباً بفضل جهود جلالته مستوى ارقى الامم من هذه الوجهة . ومن الجلي انهُ لتحقيق امالي جلالته يجب ان تسود روح الاتفاق والوئام بين جميع العناصر التي يتألف منها سكان القطر وان تعم هذه الروح الطبقات كافة وهذا الامر ستتكفل بهِ مصر على ما فيهِ من المشقة والعناء لان عدد الاميين فيها لا يزال كبير والتعليم العام ضيق النطاق

على ان روح المسالمة السائدة في الامة يسهل عليها قبول مبدإ التآخي العام نظريًّا وعمليًّا على شريطة ان تقدم لها سائر البلاد القدوة الحسنة في هذه السبيل. وعلى ان يترك للمستقبل امر تأثير انتشار هذا المبدإ في مصر

وفي الوقت الحاضر تقوم المدارس الاولية اذا استثنينا التعليم الديني الذي أساسهُ القرآن الكريم بتعليم المعلومات الاساسية العملية الضرورية كالقراءة والكتابة والحساب والتربية البدنية. اما علم التاريخ فلا يبدأ بدرسهِ الا في المدارس الاولية الراقية التي لا تزال قليلة العدد ومدة التعليم فيها اربع سنوات وبها يتعلم التلميذ اثناء السنتين الاوليين تراجم مشهوري الدولتين العربية والعثمانية ويدرس في السنتين الاخيرتين اهم حوادث تاريخ مصر والتاريخ العام مع بعض معلومات عن توسع دول الاستعمار الكبرى وتقدمها

اما في المدارس الابتدائية ومدة الدراسة بها اربع سنوات فلا يعطى درس التاريخ الا في السنتين الثالثة والرابعة فقط ومنهاج علم التاريخ المقرر بها يرمي في مجموعهِ الى جعل التلميذ ملمًّا بعض الالمام بما كانت عليهِ الحضارة المصرية العريقة في القدم وما طرأ على مصر من الحوادث من عهد الفتح العربي وعلى نهضة البلاد

ورقيها في القرن التاسع عشر وفي عصرنا الحاضر

اما المدارس الثانوية فيدرّس فيها تاريخ مصر وعلاقتهُ ببقية البلاد وتعليمهُ عام في الاربع السنوات الدراسية المقررة بهذه المدارس ويتضمن زيادة على تاريخ مصر من حيث علاقتها بالبلاد القديمة والحديثة تاريخ توسع العرب والترك واهم حوادث التاريخ مع بيان انتشار دول اوربة في سائر قارات العالم ثم تقدم امريكة واستراليا وارتقاء آسية السياسي وتقدم الصناعة والتجارة في القرن التاسع عشر ويتم الطالب ما يتلقاهُ في المدارس الثانوية من المبادىء العامة بالمدارس العالية عند ما يدرس تاريخ الحضارة والنظم التي يجري عليها العالم

ثانياً — كيف يكون تعليم التاريخ وسيلة لاخاء الاخاء بين شعوب العالم

اذا دُرس التاريخ درساً صحيحاً واجيد تدوينه وجب أن يكون مقصورا على احياء ذكرى الماضي وعلى استاذ التاريخ ان يكون حكماً عادلاً في الحوادث التي يدونها التاريخ وفي الرجال المسؤولين عن هذه الحوادث وعلى هذا الاعتبار يكون تعليم التاريخ غزير الفائدة لما يشتمل عليهِ من العبر والعظات الجمة التي تساعد جميع الافراد والشعوب على السير في طريق الحياة والاستعداد للمستقبل . على اننا اذا أردنا ان يكون لهذا التعليم أثر فعال في بث الاخاء العام في النفوس واغاثه يجب ان يُنظر في ذلك الى قاعدة أساسية هي استنهاض هم الشعوب وهم حكامها الى الرغبة الصادقة في معاونة بعضهم بعضاً بدل الاستسلام الى الاهوا التي افضت بهم الى التنافر والتنابذ على توالي الايام كما هو واقع الآن وبعبارة اخرى يجب أن يتغلب الميل الى البر والاحسان والاعتدال في الشهوات على الطمع وروح التسلط والاستعباد ويجب ان يكون المثال الذي يحتذى بهِ في هذا الطريق صادرا من الطبقات الراقية على حدّ قول الفونس كار الشهير لما الغيت عقوبة الاعدام « ليبدأ سادتنا القتلة». فما لا بد منهُ أن تبدأ اكثر الشعوب اجراماً باصلاح نفسها قبل غيرها وتنبذ منذ الآن كل فكرة ترمي الى الفتح والسيادة إذ لا فائدة من بث خلق الاخاء بين تلاميذ المدارس في حين ان هذا الامر يظل مجهولاً من الحكام الذين يقبضون على ازمة الامور ويقررون مصير الشعوب ومن الشعوب التي تخلط بين الحق والقوة

لا يكون الانسان حكماً وخصماً في آن واحد وليس لاحد أن ينتقم لنفسهِ.

فاذا جرى الناس على هاتين الحكمتين أصبحتا القاعدة التي يبنى عليها القانون الدولي. على انهُ ما دام هناك قضاة صلح لحسم الخلاف بين الناس بالليِّن والمسالمة فلم لا يكون هناك ايضاً قضاة لحسم النزاع وحل المشاكل بين الامم ولتكن الكلمة الاخيرة للعقل لا للمدفع

بعد ان يصير التحكيم الدولي قاعدة عامة محترمة يستطيع افراد جميع الامم ان يوجهوا مجهوداتهم المشتركة الى تحسين الاحوال المعيشية بدلاً من ان يستعملوا مواهبهم وذكاءهم في مضاعفة آلات التدمير والافتنان في اتقان صنعها

هذا ويلوح أن الذوق السليم يكفي لان يظهر للانسان بانهُ لا فائدة له من ان يكون ذئباً على بني جنسهِ وكذلك العقل يرشدهُ الى الاعتقاد بما يخالف رأي دوكارت الفيلسوف الفرنسي الشهير الذي يقول «ان الناس لا يفتأون يقتتلون لما يرونهُ من قسمة الحظوظ في هذه الدنيا لا ترضي الجميع»

واذاً من المهم جدًّا تثقيف العقول وتهذيب السريرة حتى يكوّن في جميع الناس على اختلاف طبقاتهم نوع من الضمير الدولي أعني شبه اتحاد في الشعور وفي الحكم على بعض المسائل التي تتساوى أهميتها في نظر الامم جمعاء. والغرض من ذلك كله ايجاد التعاون بين البشر ونبذ وسائل التدمير والتخريب واجتناب الحروب وتأسيس جامعات التعاون الدولية على مثال جامعات الاسعاف الخصوصية لان فكرة السلام الدائم بين الناس لم تعد خيالية كما كانت في زمن رئيس دير القديس بطرس

وقد أخذت هذه الفكرة تنضج وتصبح حقيقة ملموسة على أثر تأسيس عصبة الامم التي قامت البراهين على عظيم نفعها. ويظهر ان الوقت حان للبدء في أن يغرس في الاطفال منذ الصغر حب التعاون الدولي لمساعدة هذه العصبة على البقاء والنجاح والقيام فعلاً بتأدية المهمة التي انشئت لاجلها

ولما كان التاريخ مرآة الزمان ونبراس الحقيقة ومرشد الحياة فلا ريب ان فائدتهُ تكون جليلة ويكون له حسن الاثر إذا خلا من المحاباة التي تشوّه وجه الحقيقة ولذلك ينبغي لمعلم هذا الفن ومتعلمهِ ألّا يقصر حبهما على بلدهما بل عليهما ان يتعرفا حقوق الغير واحترامها وأن تكون خلاصة درس هذا العلم التحقق بوجه عام من أن الحرب والتخريب يعودان بالوبال على مشعل نارها وأن هناك محكمة عالية ستبدي قرارها وتصدر حكمها عاجلاً أو آجلاً وان الناس يستفيدون كثيراً من محبة بعضهم بعضاً ومن بقائهم متحدين حيث لا غنى لاحدهم عن الآخر

لهذا ينبغي أن يمحى من قلوب الشعوب بل من قلوب الافراد ما غشيها من عتوّ وجبروت فلا يرى أحد فضلاً لهُ على أحد لانتسابه الى شعب عريق في المجد ولا يتسرب اليه الغرور وتدفعهُ العظمة الى النظر الى غيره بعين اختلطت بها الرحمة بالازدراء فينظر اليه من شامخ مجده بعين الاحتقار بل على الامم التي ترى غيرها اقل منها من الوجهة المادية والعقلية والخلقية أن تمدّ اليها يد المساعدة لانهاضها الى مستواها لا أن تسعى في قهرها وبسط سلطانها عليها

واذا تصفحنا كتب التاريخ الحالية نرى انها تنفي عجد البلد الذي وضع الكتاب لاجله فضلاً عن انها مشحونة بالآراء والافكار التي تدفع النشء غالباً الى النظر للبلاد الاخرى بعين العداء والكراهة

وغني عن البيان انهُ كان من الواجب أن يستعاض عن ذلك بالتوسع في اغراض الحقيقة التاريخية التي تعود بالنفع على الانسانية ولا يمكن الوصول الى ذلك بمجرد ايراد نبذ نظرية عامة للارشاد تترك للشعوب حرية الاخذ بها أو نبذها ولكن يجب ان تكون جميع كتب التاريخ مكتوبة بروح واحدة طبقاً لقواعد عامة مشتركة وأن تتغلب فيها فكرة الرقي ونفع النوع البشري على صحيفة الماضي وما انطوى عليه من نعيم وبؤس ومن حوادث مشئومة ومن فتوح مفيدة في سبيل الحضارة

ولاخراج هذه الآراء من حيز القول الى حيز الفعل في المستقبل القريب يجمل العمل بالاقتراحات الآتية : —

أولاً — اجراء مسابقة عالمية لوضع رسالة تبين احسن الوسائل التي تؤدي الى تدريس علم التاريخ بطريقة تعين على تعميم روح الاخاء بين الناس وتوسيع دائرتها

ثانياً — متى حازت إحدى الرسائل الموضوعة في هذا الغرض اجماعاً في الآراء او أغلبية وذلك في المؤتمر القادم الدولي للتربية الخلقية وجب اتخاذ التدابير لتعميم ما دُوّن منها بجميع البلدان

ثالثاً — ان تعمل مسابقة لوضع كتاب في التاريخ وفاقاً للطريقة المقترحة في الرسالة التي يقع الاختيار عليها ليكون مثالاً ينهج على منواله

ومتى تم الاتفاق على الطريقة المقترحة وسبيل السير على قواعدها وجب علينا أن نبادر في الشروع بتجربتها بصدق وامانة وبعد ظهور نتائجها يحكم لها أو عليها

اسماعيل حسنين باشا — وكيل وزارة المعارف